

الوضع والنحل

مدخل :

إن الوضع والنحل ظواهر أدبية عامة لا تقتصر على أمة دون أخرى ولا يختص بها جيل دون غيره ، فقد عرفها العرب كما عرفتھا الأمم الأخرى التي كان لها نتاج أدبي ، وعرفھا العصر الجاهلي كما عرفھا العصر الأموي والعباسي بل ويعرفھا العصر الحاضر الذي نعيش فيه ، على الرغم من وسائل الحضارة الحديثة التي كانت قميئة أن تبرئ نتاجنا من هذه الظواهر لو كان ثمة سبيل إلى الخلاص منها .

فإن شيوع الكتابة وانتشار الطباعة بصورها المتعددة وصنوفها المتباينة لم يحولا دون نسبة شعر إلى شاعر لم يقله ولم يدر عنه شيئاً . لم يكن الوضع والنحل مقصوراً على الشعر وحده بل لقد انتظم كل ما يمت إلى الأدب العام بسبب كالنسب والأخبار منذ الجاهلية نفسها ، ولقد بدأ الكذب والوضع في الحديث النبوي في حياة رسول الله ﷺ ، ولعل ذلك هو الدافع لقول رسول الله ﷺ : « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » وحسبنا من كل ذلك إلماحة عابرة نتقل بعدها إلى الحديث عن الوضع والنحل في الشعر الجاهلي بوجه خاص والدليل على أن الوضع والكذب في النسب قديم منذ الجاهلية وعصر الرسول عليه السلام أن النبي ﷺ كان إذا انتسب لم يجاوز في نسبه (معد ابن عدنان بن أدد) ثم يمسك ويقول : (كذب النسابون)^(١) ، وكذلك ما ذكره (الهيثم ابن عدي) في كتابه (المثالب) من أن (دغفلا) النسابة دخل على معاوية فقال له معاوية : من رأيت من علية قریش ؟ فقال : (رأيت عبد المطلب بن هاشم ، وأمیه بن شمس) فقال : صفهما لي فلما وصف له (عبد المطلب) قال : فصف (أمیه) قال : رأيت شيخاً

(١)طبقات ابن سعد ٢٨ / ١ .

قصيراً نحيف الجسم ضريراً يقوده عبده (ذكوان) فقال : مه ، ذاك ابنه (أبو عمرو) فقال : هذا شيء قلتموه بعد وأحدثتموه ، وأما الذى عرفت فهو الذى أخبرتك به^(١) .

وأما الوضع والكذب فى الحديث النبوى منذ عهد الرسول نفسه فأمر بين واضح ، والدليل على ذلك قول النبى ﷺ : « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار »^(٢) ، وقد جاءه ذات يوم المنقع بن الحصين فقال : يا رسول الله إن الناس خاضوا فى كذا وكذا ، فرفع النبى ﷺ يديه وقال : اللهم لا أحل لهم أن يكذبوا على قال المنقع : فلم أحدث بحديث عن النبى ﷺ إلا حديثاً نطق به كتاب ، أو جرت به سنة ، يكذب عليه فى حياته فكيف بعد موته^(٣) .

وقد تنبه الصحابة فى الصدر الأول إلى شيوع الكذب والوضع فى الحديث حتى إن أبى وقاص حينما سئل عن شيء فى الحديث استعجم وقال : (إنى أخاف أن أحدثكم واحداً فتزيدوا عليه بمائة)^(٤) وقد أمر رسول الله ﷺ (زيد بن ثابت) أن يتعلم كتاب اليهود ، وقال : « لا آمن أن يبدلوا كتابى »^(٥) .

قضية النحل والوضع :

نما تقدم استبان لنا بوضوح وجلاء تأمين أن الشعر الجاهلى دخله وضع ونحل كثير ، حيث كان هناك رواة وضاعون حرفوا فى الشعر الجاهلى وأضافوا إليه ، من أمثال : خلف الأحمر ، وحماد عجرد ، وقد أوماً إلى ذلك القدماء وحاولوا جاهدين نفى الزيف عنه وما وضعه الوضاعون ، وقد بلغ من عنايتهم بهذا الأمر وحرصهم أن أهمل ثقاتهم كل ما روى عن المتهمين من أمثال (خلف ، وحماد) ووقفوا لهم بالمرصاد يكشفون زيفهم ، ويصوبون أخطاءهم حتى خلصوا لنا قدراً كبيراً من الشعر الجاهلى

(١) الأغانى ١ / ١٢ .

(٢) طبقات ابن سعد ٣ / ٥٧ .

(٣) ذاته ٧ / ٤٣ وما بعدها .

(٤) ذاته ٣ / ١٠٢ .

(٥) إمتاع الأسماع للمقرئى ، ص ١٨٧ .

الصحيح الذى يمكن أن نثق به ، ونطمئن إلى صحته ، ومن هؤلاء (أبو عمرو بن العلاء والمفضل الضبى ، والأصمعى ، ثم ابن سلام صاحب طبقات الشعراء ، وبخاصة (الأصمعى) الذى انبرى لهؤلاء الوضاعين المزيفين ، وتعقبهم ، بل وقعد لهم كل مرصد ، كما كان (المفضل الضبى) من قبله وتتابع الرواة الأثبات بعد الضبى والأصمعى يحققون ويحصون فى التراث ، ومن أهم هؤلاء فى هذا المضمار (محمد بن سلام الجمحى) فقد سجل فى كتابه الشهير (طبقات فحول الشعراء) كثرة كاتبة من الملاحظات - ملاحظات أهل العلم والدراية فى رواية الشعر القديم من أساتذة المدرسة البصرية التى يتسبب إليها وأضاف إلى ذلك كثيراً من ملاحظاته الشخصية ، ونرى (ابن سلام الجمحى) يومئ فى كتابه إلى هذه القضية وقد ردها إلى عاملين : عامل القبائل التى كانت تتزيد فى شعرها لتتزيد فى مناقبها ، وعامل الرواة الوضاعين . يقول ابن سلام مبيناً السبب فى ذلك : فلما راجعت العرب رواية الشعر ، وذكر أيامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسن شعرائهم ، ثم كانت الرواة بعد فزادوا فى الأشعار^(١) .

ويفهم من هذه المقولة أن القبائل كانت تزيد فى شعر شعرائها بغية التفاخر والاستحواذ على المناقب والفضائل التى تعلو مكانتهم وترفع من أقدارهم بين العشائر الأخرى ، وقد أوماً (ابن سلام) إلى ما زادته قريش فى أشعر الشعراء ، وقد أضافت كثيراً إلى شعر (حسان بن ثابت)^(٢) ، ثم نراه يذكر أن من أبناء الشعراء وأحفادهم من كان يقوم بذلك من أمثال (داود بن متمر بن نويرة) فقد حدث أن أبا عبيدة استنشد شعر أبيه (متمر بن نويرة) ولاحظ أنه لما نفذ شعر أبيه جعل يزيد فى الأشعار وبعضها ، وإذا كلام دون كلام (متمر) وإذا هو يحتذى على كلامه فيذكر المواضع التى ذكرها متمر والوقائع التى شهدها فلما توالى ذلك علم (أبو عبيدة) ومن كانوا معه أنه يفتعله^(٣) ،

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى ص ٢٢ طبع مطبعة المحمودية بالقاهرة .

(٢) ذاته ، ص ١٨٩ وما بعدها .

(٣) ذاته ص ٢٣ بتصرف .

كما شك في قصيدة أبي طالب التي روتها قريش في مدح الرسول عليه السلام^(١) ويقول الرافعي : (قال أبو عبيدة إنه قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدوي من الجلب والميرة ، قال : فأتيته أنا وابن نوح ، فسألناه عن شعر أبيه متمم وقمنا له بحاجته فلما نقد شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويضعها لنا ، وإذا كلام دون كلام (متمم) وإذا هو يحتذى على كلامه فيذكر المواضع التي ذكرها متمم والوقائع التي شهد بها ، فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله)^(٢) .

ثم نرى الدكتور (طه حسين) يضيف عاملاً على هذين العاملين وهو (عامل الدين والشعبوية) ، أما عامل الدين فيتمثل في الأشعار المنظومة في الجاهلية إرهاباً لبعثة الرسول ﷺ ، وفيما نسب إلى الجن والأُم القديمة البائدة ، وأما عامل الشعبوية فقد دفع الأعاجم إلى أن تضع على ألسنة الجاهليين أشعاراً تثبت مثالبهم ومناقب الأعاجم ، كما دفع العرب إلى وضع أشعار تثبت مثالب العجم ومناقب العرب ، ومن هذا المنطلق أخذ (طه حسين) يشكك فيما أضافه الجاحظ إلى الجاهليين في كتابه (الحيوان) مما يدل على اتساع معرفة العرب في هذا العلم . ونحن نرى أن مرد ذلك كله إلى العصبية التي كانت تسيطر على هذا العصر برمته ، فكل قبيلة تريد أن تتباهى وتفاخر الأخرى بوفرة مناقبها ، وكثرة أيامها ووقائعها ، وشعراء أيضاً سجلوا هذه الأحداث مما يدلون به على صدق مقولتهم ، ذلك الذي دفعهم إلى التزيد والنحل والوضع سواء في ذلك تزيد القبائل ، أو الرواة الوضاعين يقوى ذلك ما عرفناه من خلال دراستنا للعصر الجاهلي من اعتزاز الجاهليين بالشعراء واحتفالهم بالشعر وإقامة الموائد والأفراح وضرب النساء بالمزامير كما يفعلن في الأعراس ، ذلك إذا نبغ فيهم شاعر .

كما نرى القبائل المجاورة تفد للتهنئة ، كل ذلك يرجع ويعضد ما ذهبنا إليه من أن الدافع الحقيقي للوضع والنحل والتزيد هو « العصبية القبلية » ودافع المنافسة والظهور بأنهم عرفوا ما لم يعرفه غيرهم .

(١) طبقات ابن سلام ، ص ٢٠٤ .

(٢) تاريخ آداب العرب للرافعي ١ / ٣٥٣ .

ومما سبق يتبين لنا أن الرواة من أمثال (أبى عبيد) كانوا يراجعون ما ترويه القبائل ، وكانوا يرفضون ما يتبين لهم زيفه ، وذلك إما بالرجوع إلى أصول صحيحة أو إلى أدواقهم وما يحسنون من نقد الشعر ومعرفتهم بالشاعر ونظمه وقاموسه الشعرى ، كما أن شكهم فى قصيدة أبى طالب التى أومأنا إليها آنفاً دليل على أنهم نظروا فى شعر «قريش» فقبلوا منه ورفضوا^(١) وهم يفحصون ويحققون فى شعر المدينة كما فحصوا وحققوا فى شعر قريش وغيرها من القبائل .

ويقول الرافعى : ولم يكن من سبب فى جاهلية العرب بيعتهم على وضع الشعر ونحلته غير قائله ، وإرساله فى الرواية على هذا الوجه ، لأن شعراءهم متوافرون ، ولأنهم لا يطلبون بالشعر إلا المحامد ، والمعايير وقصارى ما يكون من ذلك أن يتزايد شاعرهم فى المعنى ويكذب فيه إذا هو حاول غرضاً أو أراغ معنى مما تلك سبيله ، وعلى أن ذلك لا يكون إلا فى الأخبار التى تلحق بالتاريخ ، لأن الشاعر موضع الثقة ، وهو مصدر رواية فى العرب فإن أرسل القول أرسل معه التاريخ فيجريان معاً ، وذلك كالذى ادعاه «الأعشى» فى مناصرة (علقمة بن علاثة) و (عامر بن الطفيل) فإنهما تنافرا إلى (هرم بن قطبة) فى خبر مشهور ، فاحتال لهما حتى رضيا بحكمه جميعاً ، إذ كره أن يفضل أحدهما على الآخر وهما ابنا عم فيوقع بذلك عداوة بين الحيين ، فوصفهما بأنهما فى المنزلة كركبتى البعير الأردم تقعان إلى الأرض معاً ، ولكن الأعشى أدعى أنهما حكما (هرما) وأنه حكم (لعامر) على (علقمة) وقال فى ذلك بعض قصائده وأشاعها فى العرب فلبس على الناس ، وإنما جات هذا الإفك لأنه كان ممن ثار مع (عامر) وكان قبل ذلك حين رجع من عند (قيس بن معد يكرب) بما أعطاه طلب لجوار والخفرة عن علقمة فلم يكن عنده ما طلب وأجاره وخفره (عامر) حتى أداه وماله إلى أهله .

وهذا التزويد هو الذى يسميه الرواة أكاذيب الشعراء ، إما أن يكون فى عرب الجاهلية من يصنع الشعر وينحله غيره على نحو ما كان فى الإسلام فذلك ما لا نعلمه

(١) طبقات ابن سلام ، مرجع سابق ص ٢٠٥ .

ولا نظنه البتة^(١) إنما كان منهم عكس هذا ، وهو انتحال الرجل شعر غيره أو الاجتلاب منه أو نحو ذلك ، قال الراجز :

يا أيها الزاعم أنى أجتلب وأنى غير عضامى أنتجب
كذبت ، إن شر ما قيل الكذب^(٢)

ولما جاء الإسلام واندفع به العرب إلى الفتوح اشتغلوا عن الشعر بالجهاد والغزو حيناً من الزمن ، فلما راجعوا روايته بعد ذلك وقد أخذ منهم السيف والحيث وذهب كثير من الشعر وتاريخ الوقائع بذهاب روايته صنعت القبائل الأشعار ونسبتها إلى غير أهلها تتكثر بها وتعتاض مما فقدته ، وكان في العرب قوم آخرون قلت وقائعهم وأشعارهم فأرادوا أن يلحقوا بذوى الكثرة من ذلك ، وإنما العزة للكثير ، فقالوا على ألسن شعرائهم ما لم يقولوه ، وأخذ عنهم الرواة .

وأولى القبائل التي وضعت الشعر في الإسلام (قريش) وكانت أقل العرب شعراً وشعراء ، فإنها لما تعاضت واستتبت وكذب بعضها على بعض أول العهد بالإسلام حين كان منها المسلمون ومنها القاسطون ومنها دون ذلك وضعوا على (حسان بن ثابت) أشعاراً كثيرة لا تليق به ولا تجوز عليه ، وما نرى العرب إلا أخذت أخذها في ذلك من بعد^(٣) .

ولما كانت الرواية العلمية في القرن الثاني وشمر الرواة في طلب الشعر للشاهد والمثل استفاض الوضع في العرب وتفرغ قوم لذلك مثل (محمد بن عبد الملك الفقي) (راوية بنى أسد) الذي وضع للرواة أشعاراً كثيرة أدخلها في روايته عن قومه ، وإن أشد ما كان يعضل بالرواة يومئذ أن يقول الرجل من ولد الشعراء في العرب عن لسان أبيه

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي ١/ ٣٥١ ، ٣٥٢ . دار الكتاب العربي ، لبنان ، الطبعة الرابعة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .

(٢) ذاته ، هامش ص ٣٥٢ . العضاء : شجر ، الانتجاب : نزع نجيته بفتح الجيم وهو لجأؤه أو قشر قروقة .

(٣) ذاته ، ص ٣٥٢ وما بعدها .

تكثيراً لشعره ، فإن هذا كان مما يشكل عليهم لأنهم لا يميزون أكثر الشعراء إلا بالنسبة
وهي محمل الصدق والكذب .

أما الصنعة الشعرية فقلما تختلف في أشعار العرب اختلافاً يظهر لأولئك الرواة إلا
في القليل من صنعة الفحول المتقدمين ، وكان القوم إذا تعلقوا بزجل من ولد الشعراء
وألحوا عليه في السماع ، ورغبوا في شعر أبيه دونه فكثيراً ما يفعل بهم مثل ذلك ، ومن
هؤلاء (دواوين متمم بن نويرة) الشاعر^(١) .

شعر الشواهد :

وهو النوع الذى يدخل فيه أكثر الموضوع ، لحاجة العلماء إلى الشواهد في تفسير
الغريب ومسائل النحو ، وقد اشترط ذلك علماء المصيرين (البصرة والكوفة) بعد أن
قامت المناظرات بينهم في فروع النحو ومسائله ، وكانوا يستشهدون على ذلك بأشعار
الطبقتين من الجاهليين والمخضرمين . ثم اختلفوا في الإسلاميين مثل (جرير ،
والفرزدق) وأكثرهم على جواز الاستشهاد بأشعارهم .

وكان (أبو عمرو بن العلاء) و (عبد الله بن إسحاق) و (الحسن البصرى) و (عبد الله
ابن شبرمة) يلحنون (الفرزدق) و (الكميت) و (ذو الرمة) وأضرابهم ويعدونهم من
المولدين الذين لا يستشهد بكلامهم .

قال الأصمعى : (جلست إلى أبي عمرو) عشر حجج ما سمعته يحتاج بيت
إسلامى ، وأبو عمرو هذا يقول في شعر تلك الطبقة : (لقد حسن هذا المولد حتى
هممت أن امر صبياننا بروايته)^(٢) .

وقد قلت شواهد النحو واللغة بعد ذهاب الرواه وعفاء مجالسهم حتى صارت
نسبة الآثار التاريخية في الضن بها ، والحرص عليها ، وتداولها كما هي لأن قيمتها في
الحالة نفسها التي هي عليها ، ولم يشتهر أحد في المتأخرين بالإكثار من تلك الشواهد

(١) تاريخ آداب العرب للرافعى ١ / ٣٥٣ ، دار الكتاب العربى ، لبنان ، الطبعة الرابعة ١٣٩٤ هـ -
١٩٧٤ م .

(٢) ذاته ، ص ٣٥٤ .

والإتساع فى حفظها كابن مالك النحوى الشهير صاحب الألفية المتوفى سنة (٦٦٢هـ) والكوفيون أكثر الناس وضعاً للأشعار التى يستشهد بها لضعف مذهبهم^(١) .

ويقدم لنا ابن سلام طائفتين من الرواة كانتا ترويان متتحلاً كثيراً وتنسبانه إلى الجاهليين :

الطائفة الأولى : كانت تحسن نظم الشعر وصوغه ثم نضيف ما تنظمه وتصوغه إلى الجاهليين مثل (حماد ، وخلف الأحمر وجناد) .

الطائفة الثانية : ولم تكن هذه الطائفة تحسن النظم ، ولا الاحتذاء على أمثلة الشعر الجاهلى ، ولكنها كانت تحمل كل غناء منه وكل زيف ، وهؤلاء هم رواة الأخبار والسير والقصص مثل (ابن إسحاق) صاحب السيرة النبوية حيث كانت تصنع له الأشعار ويدخل فى سيرته دون تحرز أو تحفظ منطلقاً بالشعر العربى من لم ينطقوه من قوم عاد ، وثمود ، والعماليق ، وجديس^(٢) حيث يقول الله تعالى : ﴿ وأنه أهلك عاداً الأولى وثمود فماً أبقى ﴾ فكيف يكون لهما شعر ؟ وقال تعالى أيضاً : ﴿ فهل لهم من باقية ﴾ .

يقول الجاحظ : (فأنا أعجب من مسلم يصدق بالقرآن ، يزعم أن قبائل العرب من بقايا ثمود)^(٣) وكان أبو عبيدة يتأول قوله (وثمود فماً أبقى) أن ذلك إنما وقع على الأكثر وعلى الجمهور الأكبر ، وهذا التأويل أخرجه من أبى عبيدة سوء الرأى فى القوم ، وليس له أن يجئ إلى خبر عام مرسل غير مقيد ؛ وخبر مطلق غير مستثنى منه فيجعله خاصاً كالمستثنى منه ، وأى شىء بقى لطاعن أو متأول بعد قوله (فهل ترى لهم من باقية) .

فكيف يقول ذلك إذا كنا نحن قد نرى منهم فى كل حى باقية ، معاذ الله من ذلك . ورووا أن الحجاج قال على المنبر يوماً : تزعمون أنا من بقايا ثمود وقد قال الله تعالى : ﴿ وثمود فماً أبقى ﴾^(٤) .

(١) تاريخ آداب العرب للرافعى ١ / ٣٥٥ ، دار الكتاب العربى ، لبنان ، الطبعة الرابعة ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .

(٢) العصر الجاهلى د/ شوقي ضيف ، ص ١٦٥ بتصرف .

(٣) البيان والتبيين للجاحظ ١ / ١٨٨ .

(٤) ذاته ، مرجع سابق .

وقد وصف (ابن سلام الجمحي) ^(١) صنيع هؤلاء بأنه شعر غث لا خير فيه ، ولا حجة في عريته ولا أدب يستفاد ، ولا معنى يستخرج ، ولا مثل يضرب ، ولا مديح رائع ولا هجاء مقذع ، وقد أوماً صاحب (طبقات الشعراء) إلى أن الدافع إلى النحل والوضع في الشعر الجاهلي هو (العصبية القبلية) ؛ مما أدى إلى التنافس في أن تكون لكل قبيلة هي صاحبة القدح الملقى في الشعر وقلته وكثرته ، فقال : (ولما راجعت العرب رواية الشعر ، وذكر أيامها ومآثرها ، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار فقالوا على ألسن شعرائهم ، ثم كانت الرواة فزادوا في الأشعار) ^(٢) .

ورفض (ابن سلام والأصمعي) وأضرابهما رواية الطائفتين جميعاً حيث إنهم لم يقبلوا مما يرويه هؤلاء شيئاً إلا أن يأتيهم من مصادر وثيقة ، كما أنهم لم يقبلوا شيئاً ممن يرويه (ابن إسحاق) لا عن الأمم البائدة فحسب ، بل عن عرب الجاهلية أنفسهم إلا أن يجدوه عند رواة أثبات ، يقول ابن سلام (وقد ذكر أبو سفيان بن الحارث) أحد شعراء (قريش) الذين كانوا ينافسون (حسان بن ثابت) وشعراء المدينة : (إن شعره في الجاهلية سقط ولم يصل إلينا منه إلا القليل) ثم علق على ذلك بقوله :

ولسنا نعد ما يروى (ابن إسحاق) له ولا لغيره شعراً ، ولأن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذاك لهم ^(٣) فقد كانوا يرفضون رواية (ابن إسحاق) صاحب السيرة وأمثاله من الرواة الوضاعين مثل (عبيد ابن شربة) يقول صاحب طبقات فحول الشعراء (وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وصفوا ولا ما وضع المولدون) ^(٤) مما حمله رواية القصص والأخبار من شعر غث لا خير فيه ، ولا حجة في عريته ولا أدب يستفاد ولا معنى يستخرج ولا مثل يضرب ولا مديح رائع ولا هجاء مقذع ولا فخر

(١) طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي ص ٥ ط المحمودية بالقاهرة .

(٢) ذاته ، ص ٣٩ وما بعدها .

(٣) ذاته ، ص ٢٠٦ والعصر الجاهلي د/ شوقي ضيف ، ص ١٦٥ .

(٤) طبقات فحول الشعراء ، ص ٤٠ .

معجب ولا نسيب مستطرف^(١) ففي الشعر الجاهلي منتحل لا سبيل إلى قبوله ، وفيه موثوق به على درجات ، منه ما أجمع عليه الرواة ، ومنه ما رواه ثقات لا شك في ثقتهم وأمانتهم من أمثال (المفضل الضبي) و (الأصمعي) و (أبي عمرو بن العلاء) وقد يغلب المنتحل الموثوق به ولكن ذلك لا يخرج بنا إلى إبطال الشعر الجاهلي عامة ، وإنما يدفعنا إلى بحثه وتمحيصه مهتدين بما يقدم لنا الرواة الأثبات من أضواء تكشف الطريق^(٢) ويقول الدكتور (ناصر الدين الأسد) :

إن الشعر الجاهلي كان عرضة منذ الجاهلية نفسها وسنوات الإسلام الأولى للوضع والنحل والانتحال ، والأمثال التي بين أيدينا قليلة ولكن فيها مقنعاً ، إذ إنها تدل دلالة واضحة على أن هذه الظواهر الأدبية كانت معروفة شائعة منذ أبعد ما نعرف من عصور الشعر العربي ، فقال أبو عبيدة « كان قراد بن حنش من شعراء غطفان » وكان جيد الشعر قليلة وكانت شعراء غطفان تغير على شعره فتأخذه وتدعيه ، منهم (زهير بن أبي سلمى) ادعى هذه الأبيات :

إن الرزية لا رزية مثلها	ما تبتغي غطفان يوم أضلت
إن الركاب لتبتغي ذا مرة	بجنوب نخل إذ الشهور أحلت
ولينعم حشو الدرع أنت لنا إذا	نهلت من العلق الرماح وعلت
ينعون خير الناس عند كربهة	عظمت مصيبتهم هناك وحلت ^(٣)

ويروى أن النابغة الجعدي دخل على (الحسن بن علي) فودعه ، فقال له الحسن :
أنشدنا من بعض شعرك : فأشدد :

الحمد لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما

فقال له : يا أبا ليلى ، ما كنا نروى هذه الأبيات إلا لأمية بن أبي الصلت قال :
يا ابن رسول الله إنى لأول الناس قالها ، وإن السروق من سرق أمية شعره^(٤) وكان

(١) طبقات فحول الشعراء ، ص ٥ . (٢) ذاته ، ص ٦ بتصرف .

(٣) مصادر الشعر الجاهلي د/ ناصر الدين الأسد ، ص ٣٢٣ .

(٤) طبقات ابن سلام والأغانى ١٠/٥ .

الأعشى قد مدح (قيس بن معد يكرب الكندي) بقصيدة دالية ، فقال له قيس : (إنك تسرق الشعر) فقال له الأعشى : قيدنى فى بيت حتى أقول شعراً فحبسه وقيدته^(١) ، فقال عند ذلك قصيدته التى أولها :

أأزمعت من آل ليلى ابتكارا وشطت على ذى هوى أن نزارا
وفيه يقول :

وقيدنى الشعر فى بيته كما قيد الأسرات الحمارا
وسألت عائشة أم المؤمنين ، من صاحب هذه الأبيات^(٢) :

جزى الله خيراً من إمام وباركت يد الله فى ذاك الأديم الممزق
فمن يسع أو يركب جناحى نعامة ليدرك ما حاولت بالأمس يسبق
قضيت أموراً ثم غادرت بعدها بوائق فى أكمامها لم تفتق
وما كنت أخشى أن تكون وفاته بكفى سبنتى أزرق العين مطرق

فقالوا : (مزرد بن ضرار) قالت عائشة : (فلقيت مزرداً) بعد ذلك فحلف بالله ما شهد تلك السنة الموسم ، وابن سلام ينسبها إلى (جزء) أخى مزرد^(٣) .

ومن عجب أن يضع المسلمون الأولون شعراً وينحلوه أبا بكر الصديق حتى لقد روى الزهرى عن عروة عن عائشة أنها قالت : كذب من أخبركم أن أبا بكر قال بيت شعر فى الإسلام !! ولعل من خير ما يدل على هذا الذى نذهب إليه بيتاً قاله (مزرد بن ضرار) فى أبيات يصف فيها نفسه وشعره ، وأنه ليس ممن يتحل الشعر ، فقال :

وباستك إذ خلفتنى خلف شاعر من الناس لم أكفى ولم أتحل

(١) الشعر والشعراء ، ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

(٢) ابن سعد ٣ / ١ ، ٢٤١ وطبقات ابن سلام ص ٤٧ ونسبها إلى جزء أخى مزرد ابن سعد وفى طبقات ابن سلام وهكذا :

جزى الله خيراً من أمير وباركت

(٣) ذاته ، مرجع سابق .

فهنا ينفي الشاعر عن نفسه النحل والانتحال ، وسرقة شعر غيره ونسبته إلى نفسه ، ودليل آخر وهو وصف الفرزدق للشاعر (علقمة الفحل) من أن شعره لا يستطيع أحد أن ينحله ، فهو ذو طابع معروف وسمت يتأبى على غيره من الشعراء ، فلا يستطيع نسبته إلى نفسه ، فقال :

والفحل علقمة الذى كانت له حلل الملوك كلامه لا ينحل^(١)

ولم يكن الوضع والنحل فى الشعر الجاهلى ليخفى على الرواة العلماء ، فقد تنبه له كثيرون منهم ، بل قلما نجد راوية عالمًا من القرنين الثانى والثالث لا تذكر لنا الأخبار المروية عنه أنه نص نصًا صريحًا على أن بيتًا أو أبياتًا بعينها موضوعة منحولة ، وإليك بعض ما نص عليه العلماء من رجال الطبقة الأولى والثانية ، فقد ذكر أبو عمرو بن العلاء (أن ذا الإصبع العدواني) قال يرثى قومه :

وليس المرء فى شىء	من الإبرام والنقض
إذا يفعل شيئًا خا	له يقضى وما يقضى
حديد العيش ملبوس	وقد يوشك أن ينضى ^(٢)

ثم نص على أنه لا يصح من أبيات ذى الإصبع الضادية هذه إلا الأبيات التى أنشدها وأن سائرهما منحول^(٣) ، بينما يورد (الأصفهاني) نحوًا من أربعة وعشرين بيتًا آخر عدا الأبيات المذكورة آنفًا^(٤) .

وذهب أيضًا (أبو عمرو بن العلاء) إلى أن القصيدة المنسوبة إلى (امرئ القيس) والتى مطلعها^(٥) .

لا وأبيك ابنة العامر ي لا يدعى القوم أنى أفر

(١) طبقات ابن سعد ١ / ٣ رما بعدها وطبقات ابن سلام ، ص ٨٨ .

(٢) الأغاني ١٠٦ / ٢ .

(٣) ذاته ، ص ٩٦ .

(٤) ذاته ، ص ٩٣ ، ١٠٧ ، ١٠٨ .

هى لرجل من أولاد (النمر بن قاسط) يقال له (ربيعة بن جعشم) وأولها عنده^(١) :

أحار بن عمرو كأنى خمر وبعد على المرء ما يأتى

وها هو ذا (عمر بن عبد الملك) وأخوه (مسمع) الملقب (كردين) وهما من طبقة
أبى عمرو بن العلاء (علامتان) بالنسب روايتان للشعر ، روى عنهما أبو عبيدة
والأصمعى أخباراً وشعراً ينكران ما أضيف إلى قصيدة الحارث بن عباد ولم يصححا
منهما غير الأبيات التالية ، وهى :

قربا مربط النعامة منى لقحت حرب وائل عن خيالى

لا يحير أغنى قتيل ولا ره ط كليب تزاجروا عن ضلال

لم أكن من جناتها علم الله وإنى بحرها اليوم صال^(٢)

ومن أمثلة ذلك عند أبى عمرو الشيبانى أنه كان يدفع أن يكون هذا البيت لعترة
العيسى وهو :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم

ولم يكن يرويه حتى سمع أبا خزام العكلى يرويه له^(٣) . وأما الأخبار المروية فى
ذلك عن الأصمعى فكثيرة ، منها ما هو عام مطلق ومنها ما هو مخصص ينص فيه على
بيت أو أبيات بعينها ، فمن الضرب الأول ما أورده من أن الأصمعى قال^(٤) : أقمت
بالمدينة زماناً ما رأيت بها قصيدة صحيحة إلا مصفحة أو مصنوعة وأنه كذلك قال^(٥) :
ويقال إن كثيراً من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه وأنه قال أيضاً : (أكثر شعر)
المهلل محمول عليه^(٦) .

(١) خزنة البغدادى ١ / ٣٧٤ تحقيق هارون ط الهيئة المصرية العامة للمكتبات سنة ١٩٧٩ م .

(٢) الأغانى ٥ / ٤٧ وما بعدها الشعر الجاهلى ، ص ٣٣٦ وما بعدها .

(٣) الأغانى ٩ / ٢٢٢ .

(٤) المزهى للسيوطى ٣ / ٤١٢ وما بعدها .

(٥) الموشح للمرزبانى ، ص ٣٤ .

(٦) ذاته ، ص ٧٤ .

ومن الضرب الثاني أنه قال : (أعياني شعر الأغلب)^(١) ما روى له إلا اثنتين ونصفاً ، فلما سئل : كيف قلت نصفاً ؟ أجاب بقوله : (أعرف له اثنتين وكنت أروى نصفاً من التي على القاف ، فطولوها وكان ولده يزيدون في شعره حتى أفسدوه) وقد قال أيضاً في القصيدة المنسوبة إلى (الأغلب) في (سجاح) إنه كان يقال إن هذه القصيدة في الجاهلية للشاعر (جشم بن الخزرج) وقال الأصمعي أيضاً : الناس يروون لأمية بن أبي الصلت القصيدة التي فيها^(٢) :

من لم يمت عبطة يمت هرمًا الموت كأس فالمرء ذائقها

قال : وهذه لرجل من الخوارج . وكان الأصمعي يرى أن أبياتاً من قصيدة (زهير ابن أبي سلمى المزني) والتي يقول في مطلعها :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمثلّم

ليست له وإنما هي للشاعر : (صرمة بن أبي أنس الأنصاري)^(٣) وكان كذلك يشك في بيت الشاعر (عنترة بن شداد العبسي) :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم

ويدفع أن يكون له^(٤) ، ويروى أن أول القصيدة هو :

يا دار عبلة بالجواء تكلمى وعمى صباحاً دار عبلة واسلمى

وهناك أمثلة أخرى وأخبار كثيرة في هذا الباب لأبي عبيدة تكاد تضارع أخبار الأصمعي ، وقد أثّرنا أن نسوق شاهداً واحداً من هذا اللون ومن يرد التزود فليراجع في مظانه ومصادره ، وهو أنه ذكر أبياتاً للشاعر (علقمة الفحل) أولها :

وقد اغتدى والطير في وكناتها وماء الندى يجرى على كل مذنب

(١) الموشح للمرزباني ، ص ١٢٣ .

(٢) طبقات ابن سلام ، ص ٥٧٦ .

(٣) ذاته ، ص ٧٨ مصادر الشعراء الجاهلي ص ٣٢٨ والمعمرين من العرب لأبي حاتم سهل بن محمد السجستاني تصحيح الخانجي سنة ١٩٠٥ م .

(٤) الأغاني ٩ / ٢٢٢ .

وقال : وقد يخلط قوله الشاعر (امرئ القيس بن حجر) وقد نسبت شعر امرئ القيس إليه وأفردته من شعر علقمة^(١) .

ونكتفى هنا بذكر ما أوردناه من أخبار الطبقة الأولى من الرواة والعلماء ثم نتقل إلى الحديث بإيجاز غير مخل عن رواية الطبقة الثانية وسنجزئ الحديث عن أبي حاتم سهل بن محمد السجستاني وأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ وابن قتيبة الدينوري أما أبو حاتم فقد ذكر أبيتاً ثلاثة نسبها إلى (عمرو بن ثعلبة) وهي :

تهزأت عرس واستنكرت	شيبى ففيتها جنف وازورار
لا تكثرى هزء ولا تعجبي	فليس بالشيب على المرء عار
عمرك هل تدرين أن الفتى	شبابه ثوب عليه معار

ثم قال أبو حاتم السجستاني : (زعم بن عطاء بن مصعب الملط) أن خلفا الأحمر وضع البيت الأخير^(٢) وهو :

عمرك هل تدرين أن الفتى	شبابه ثوب عليه معار
ثم أورد أبيتاً سبعة نسبها إلى « مرداس بن صبيح » آخرها قوله :	
فلا يضرركم كبر فيانى	كريم ليس فى امرى شتات

ثم قال : وأظن البيت الأخير ليس منها وقد أورد حاتم السجستاني بيت زهير بن أبى سلمى المزنى وهو :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم^(٣)

ثم قال : وكان الأصمعى يدعى أن القصيدة للشاعر (أنس بن زنيم) قال (أبو روق) غلط أبو حاتم ، إنما كان الأصمعى يقول : القصيدة للشاعر « صرمة بن أبى أنس الأنصارى »^(٤) وأما الجاحظ فهو يومئذ إلى الموضوع والمنحول على ثلاث طرائق ، وهي :

(١) كتاب الخيل ، ص ١٢٦ .

(٢) كتاب المعمرين من العرب للسجستاني ص ٢٣ تصحيح الخانجي سنة ١٩٠٥ م .

(٣) ذاته ، ص ٣٤ وما بعدها .

(٤) شرح القصائد الطوال لابن الأنبارى ، ص ٣٨٧ ت/ هارون والديوان .

(٥) كتاب المعمرين للسجستاني ص ٦٦ بتصرف .

الأولى : وهى أن ينسب الشعر إلى شاعر بعينه ، ثم يعقب عليه بما يفيد شكه فيه .
الثانية : جزمه بأن هذا الشعر منحول ومصنوع دون أن يسوق دليلاً على ذلك ، أو
يقيم حجة على صدق ما يقول .

الثالث : أنه يقطع بأن هذا الشعر منحول ، ثم يورد من الحجج والبراهين ما يراه
كفيلاً بدعم رأيه .

فمن اللون الأول : أنه يقول : قال فلان ، ثم يذكر اسم شاعر بعينه معقباً عليه
بقول : (إن كان قالها) وقد وقع منه ذلك مراراً وتكراراً^(١) .

ومن اللون الثانى قوله : (وفى منحول شعر النابغة) :

فألقيت الأمانة لم تحبها كذلك كان نوح لا يخون^(٢)

ومن اللون الأخير : أنه أورد أبياتاً رعم بعض الرواة أنها جاهلية فيها ذكر
لانقضااض الكواكب ، والجاحظ ينكر ذلك ، ويرى أن انقضااض الكواكب لم يكن فى
الجاهلية البعيدة عن مولد رسول الله ﷺ ، بل حدث أول مرة عند مولده أو ، قبيله فهو
بذلك من أعلام ميلاده ، أو إرهابه له^(٣) ، ثم يعقب على هذه الأشعار قائلاً :
(وسنقول فى هذه الأشعار التى أنشدتموها ونخبر عن مقاديرها وطبقاتها) فأما قوله :

فانقض كالدرى من متحدر لمع العقيقة جتج ليل مظلم

فخبرنى أبو إسحاق أن هذا البيت فى أبيات أخرى ، كان أسامة صاحب (روح
ابن أبى همام) هو الذى كان ولدها ، فإن اتهمت خبر أبى إسحاق فسم الشاعر ، وهات
القصيدة ، فإنه لا يقبل فى مثل هذا إلا فى بيت صحيح الجوهر من قصيدة صحيحة
لشاعر معروف وإلا فإن كل من يقول الشعر يستطيع أن يقول خمسين بيتاً كل بيت فيها
أجود من هذا البيت ، وأما ما أنشدتم من قول (أوس بن حجر) :

فانقض كالدرى يتبعه نقع يثور تخاله طنبا

(١) الحيوان للجاحظ ٣/ ٤٩ ، ٦٨ ، ٧٠ و ٤/ ٢٤٨ ، ٢٤٩ و ٦/ ٣٣٩ .

(٢) ذاته ، ٢/ ٢٤٦ . (٣) ذاته ، ص ٢٧٢ وما بعدها .

فإن هذا الشعر ليس يرويه (لأوس) إلا من يفصل بين شعر (أوس بن حجر)
و (شريح بن أوس) . وقد طعنت الرواة في هذا الشعر الذى أضفتموه إلى (بشر بن أبى
خازم) من مثل قوله :

والعير يرهقها الحمار وجحشها ينقض خلفهما انقضاض الكوكب

فزعموا أنه ليس من عادتهم أن يصفوا عدو الحمار بانقضاض الكوكب ولا بدن
الحمار بيدن الكوكب ، وأما (ابن قتيبة) فقد أوماً إلى النحل والوضع فى موطنين من
كتابه (الشعر والشعراء) .

الموطن الأول : وقد أورد فيه قول الشاعر (الأعشى)^(١) .

إن محلاً وإن مرتحلاً	وإن فى السفر ما مضى مهلاً
استأثر الله بالوفاء وبالحمـ	د وولى الملامة الرحلا
والأرض حمالة لما حمل	الله وما إن تزد ما فعلا
يوماً تراها كـشبهه	أرديه القصب ويوماً أديها تفلأ

ثم عقب عليها بقوله : (وهذا الشعر منحول ، ولا أعلم فيه شيئاً) يستحسن إلى
قوله :

يا خير من يركب بالمطى ولا يشرب كأساً بكف من بخلا

الموطن الثانى : وأورد فيه (ابن قتيبة) سبعة أبيات من شعر (لبيد بن ربيعة) آخر
هذه الأبيات قوله :

وكل امرئ يوماً سيعلم سعيه إذا كشفت عند الإله المخامل

ثم عقب عليه بقوله : وهذا البيت الأخير يدل على أنه قيل فى الإسلام وهو شبيه
بقول الله تعالى ﴿ وحصل ما فى الصدور ﴾ أو كان لبيد بن ربيعة قبل إسلامه يؤمن
بالبعث والحساب ، ولعل البيت منحول^(٢) .

(١) الشعر والشعراء ١ / ١٤ ، المقصب : ضرب من برود اليمن . النفل : الفاسد المدباغة .

(٢) ذاته ، ص ٢٣٧ .

بعد ما تقدم من أسباب الوضع والنحل فى الشعر الجاهلى نستطيع أن نقول :

إن هذه الأسباب كانت ثغرة نفذ منها ، بل واستغلها الاستشراق وأهله استغلالاً سيئاً ، ومن هذا حذوهم من نقاد العرب المحدثين وذلك بالشك والتشكيك فى الشعر الجاهلى جميعه أو جله مستندين فى ذلك إلى الرواة الوضاعين ، غاضين الطرف عن الرواة الأثبات ، والعلماء الثقات ، وقد لفتت هذه القضية أنظار الباحثين المحدثين من المستشرقين والعرب ، وبدأ النظر فيها المستشرق (نولدكه) سنة ١٨٦٤ وتلاه (آلورد) حين نشر دواوين الشعراء الستة الجاهليين : امرؤ القيس ، والنابعة ، وزهير ، وطرفة وعلقمة وعترة فتشكك فى صحة الشعر الجاهلى عامة منتهياً إلى أن عدداً قليلاً من قصائد هؤلاء الشعراء يمكن التسليم بصحته مع ملاحظة أن شكاً لا يزال يلزم هذه القصائد الصحيحة فى ترتيب أبياتها وألفاظ كل منها ، وتابعه كثير من المستشرقين من أمثال : (موير) و (باسيه) و (كارل بروكلمان)^(١) .

وكان (مرجليوث) من أوائل من أثار الشك فى الشعر الجاهلى فى مقالة كاملة خصص صفحاتها للحديث عن هذا الموضوع من جميع أطرافه حيث إنه نشر فى (مجلة الجمعية الملكية الآسيوية عدد يوليو سنة ١٩٢٥ م) بحثاً بعنوان (أصول الشعر العربى) رجح فيه أن هذا الشعر الذى نقرأه على أنه شعر جاهلى إنما نظم فى العصور الإسلامية ثم نحله هؤلاء الوضاعون المزيفون لشعراء جاهليين ، وقد بنى رأيه هذا على ضربين رئيسيين من الأدلة وهما :

الضرب الأول : أدلة خارجية ، والضرب الثانى : أدلة داخلية .

أولاً : الأدلة الخارجية وهى :

أولاً : بدأ (مرجليوث) بالحديث عن وجود الشعر الجاهلى ، فقال :

« إن وجود شعراء قبل الإسلام أمر شهد به القرآن إذ إن فيه سورة باسمهم ، ومن بين الأوصاف التى كان خصوم النبى عليه السلام ينعنون بها ، أنه كان شاعراً مجنوناً ،

(١) العصر الجاهلى د/ شوقى ضيف ص ١٦٦ الطبعة العاشرة ، دار المعارف ، القاهرة .

والقرآن رد على هؤلاء بقوله : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ * أم يقولون شاعرٌ نترَبِّصُ بِهِ رَبِّبَ الْمُنُونِ ﴿ (١) . وأوماً القرآن إلى أن لغته ليست لغة شاعر ، ولكنها لغة رسول كريم ، وأن الله لم يعلم نبيه الشعر لأنه لا طائل له من ورائه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿ (٢) .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ * لِيُنذِرَ مَنِ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٣) .

فكلام النبي ﷺ حقيقة مقررة ، وعظة واضحة ، ويستتج من ذلك أن الشعر كان يومذاك مبهمًا غامضًا ، ويومئ (مرجليوث) إلى أن خلاصة صفات الشعراء مجموعة فى السورة التى تحمل آيهم وفيها أن الشعراء يتبعهم الغاؤون وأنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون .

ثم نرى أن الآيات التى تلى هذه الأوصاف تستثنى بعض الشعراء الأتقياء من هذا الحكم ، ويذهب إلى أنه يجوز لنا أن نستنتج مما تقدم أن الشياطين كانت تنزل على الشعراء . قال تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ (٤) .

ثم يختم (مرجليوث) حديثه بقوله : (ربما كان ما تتيح لنا الشواهد القرآنية قوله ، هو أنه كان قبل الإسلام بعض الكهان من بين العرب يعرفون باسم (الشعراء) كانت لغتهم غامضة مبهمه كما هو الشأن دائماً فى الوحي) (٥) .

(١) سورة الطور ، الآيتان ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) سورة الحاقة ، الآيات ٣٠ - ٤٢ .

(٣) سورة يس ، الآيتان ٦٩ ، ٧٠ .

(٤) سورة الشعراء ، الآيات ٢٢١ : ٢٢٢ .

(٥) مصادر الشعر الجاهلى ، ص ٣٥٢ ، ٣٥٥ بتصرف .

ثانياً : يبدأ (مرجليوث) بعد ذلك فى عرض آراء العلماء المسلمين القدماء ، ثم يثير مشكلة ابتداء الشعر العربى ونشأته ، ويقرر أنها أمر فى الغاية من الغموض حيث ذهب القدامى فيه مذاهب متباينة ، فقد عزا بعضهم شعراً عربياً إلى (آدم) وأورد آخرون قصائد غنائية عربية منذ عهد (إسماعيل) ثم يقرر أن الشعر العربى بصورته التى ثبت عليها بعد بدأ قبل ظهور الإسلام بأجيال قليلة على أبعد تقدير ، ومع أن الذين يذهبون هذا المذهب يجعلون مهلهلاً ، أو امرؤ القيس أول الشعراء ، فقد أوردوا شعراً لشعراء سبقوهما بزمان طويل ، ثم يختم حديثه هذا ختاماً يكشف عن شكه فى كل ما أورد^(١) .

ثالثاً : ثم ينتقل إلى الحديث عن حفظ الشعر الجاهلى فيقول : (لو فرضنا أن هذا الشعر حقيقى فكيف حفظ ؟ لابد أنه حفظ إما بالرواية الشفهية ، وإما بالكتابة ، والأول هو الرأى الذى يقره المؤلفون العرب ، مع أنه ليس بالرأى الذى يجمعون عليه ، ويشك فى أن يكون الشعر الجاهلى قد حفظ بالرواية الشفهية ، بانياً شكه على أسباب ثلاثة وهى :

أولاً : إذا كانت قصائد عديدة ، وذات أبيات كثيرة قد حفظت بالرواية الشفهية ، فلا يمكن حدوث ذلك إلا إذا وجد أفراد عملهم أن يحفظوها فى ذاكرتهم وينقلوها إلى غيرهم ، ولا نظن أن حرفة كهذه وجدت ، أو أنها بقيت خلال العقود الأولى من الإسلام .

ثانياً : ما يذهب إليه المسلمون من أن الإسلام يجب ما قبله ، وما ورد فى القرآن من أن أتباع الشعراء هم الغاؤون فحديث القرآن عنهم فيه قسوة عليهم ، واحتقار لهم ، فثمة سبب قوى يدعو إلى نسيان الشعر الجاهلى ، إذا كان ثمة شعر جاهلى حقيقة .

ثالثاً : إن الأعمال التى تخلدها عادة هذه القصائد كانت انتصارات القبائل بعضها على بعض ، والإسلام الذى يرمى إلى توحيد العرب ونجح نجاحاً كبيراً فى تحقيق تلك الوحدة كان يحث على نسيان تلك الحوادث ، والقصائد التى من هذا الضرب تثير النفوس وتهيج الدماء^(٢) .

(١) مصادر الشعر الجاهلى ، ص ٣٥٢ ، ٣٥٥ بتصرف .

(٢) مصادر الشعر الجاهلى د/ ناصر الدين الأسد ، ص ٣٥٦ ط دار المعارف .

بعد أن اطمأن (مرجليوث) إلى أنه قد فند ما ذهب إليه أكثر من أن الشعر الجاهلى حفظ لنا بالرواية الشفهية ، قال : (فلم يبق إلا الاحتمال الثانى وهو : أن هذه القصائد حفظت بالكتابة ثم يومئ إلى أن بعض الشعر الجاهلى كان يكتب ، ثم نرى نزعة الشك تسيطر عليه فينفى مرة أخرى كتابة الشعر الجاهلى من وجهين :

الأول : إن أمر الكتابة يتناقض مع صريح ألفاظ القرآن الكريم وأيضاً لأحكامه التى يقررها حيث إنه يسأل أهل مكة قائلاً : ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ ^(١) ثم يسأل الكفار والمشركين فيقول : ﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ ^(٢) وأولئك الذين يخاطبهم القرآن لم ينزل على آبائهم نذير ، قال تعالى : ﴿ لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ ^(٣) وقوله سبحانه : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَّذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ ^(٤) وقوله عز من قائل : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَّذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ^(٥) إلى غير ذلك من الآيات التى عرضها المستشرق الفرنسى (مرجليوث) فى هذا الشأن .

الثانى : ويذهب فيه إلى أن الأدب فى تطوره يسير عادة ، وربما دائماً من الصور الشاذة غير المنظمة إلى الصور المألوفة المنظمة .

ومن هنا يرى أن الشعر الذى يزعم أنه جاهلى إنما هو مرحلة تالية للقرآن ، لا سابقة عليه ، وذلك قوله : (إن الأساليب الأدبية العربية سواء النثر المسجوع ، أو الشعر ، فيها مشابهة من أسلوب القرآن ، وفى القرآن آيات لا ينكر أنها نثر مسجوع إلا الغلاة من

(١) سورة القلم ، الآية ٣٧ .

(٢) سورة القلم ، الآية ٤٧ .

(٣) سورة يس ، الآية ٦ .

(٤) سورة السجدة ، الآية ٣ .

(٥) سورة القصص ، الآية ٤٦ .

المتشددین ، كما أن فيه أمثلة على كثير من الأوزان الشعرية والتطور من الأسلوب القرآنى إلى الأسلوب المنتظم يبدو متماشياً مع المؤلف .

وإذا كان القرآن أول أثر فى اللغة يظهر فيه الفن الأدبى ، فإن ما يدعيه لنفسه من الإعجاز فى الفصاحة أمر من اليسر على الناس فهمه ، وهو لا يختلف بذلك كثيراً عما يدعيه لأنفسهم أولئك الذين أدخلوا لأول مرة النظم فى اللغة أو ينسبه إليهم الآخرون ، أما إذا كان المستمعون قد تعودوا سماع النثر المسجوع والشعر الكامل المصقول كما يبدو أن أساليب الآثار الأدبية التى تدل فى ظاهرها على أنها جاهلية ، فإن من اليسر إقامة الدليل على هذا الادعاء ، ثم يومئ بعد ذلك إلى الرواة من علماء القرنين الثانى والثالث الهجريين ، فيذكر (حماداً ، وجناداً) و (خلفاً الأحمر ، وأبا عمرو بن العلاء ، والأصمعى ، وأبا عمرو الشيبانى ، وابن إسحاق صاحب السيرة والمبرد) فيجمع بعض ما انتشر فى الكتب العربية من إشارات تشيع الشك فى بعض ما جمعوا أو أرادوا من الشعر الجاهلى ، ثم أشار إلى أن هؤلاء العلماء لا يوثق بعضهم بعضاً ، فابن الأعرابى كان يتهم (الأصمعى) و (أبا عبيدة) ، وربما بادلوه اتهاماً باتهام ولا شك أن كلاً منهم كان يتهم الآخر^(١) .

وقد ختم حديثه بقوله : وقد قيل إن بعض العلماء كانوا يشكون بل كانوا ينقدون ، فلم يضعوا ولم ينحلوا وأدخلوا فى مجموعاتهم ما كانوا يعتقدون أنه حقيقة شعر قديم ولا يكتفى (مرجليوث) بهذه الأدلة ، بل يسوق أدلة أخرى يراها كافية ، وكفيلة بإشاعة الشك فى الشعر الجاهلى وهى الأدلة الداخلية ، وهى :

أولاً : ما فى الشعر الجاهلى من إيماءات إلى قصص دينى ورد فى القرآن وما فيه من كلمات دينية إسلامية ، مثل (الحياة الدنيا) و (يوم القيامة) و (الحساب) وبعض صفات الله يقول الشاعر (عبيد بن الأبرص) وهو يقسم بلغة القرآن .

حلفت بالله إن الله ذو نعم لمن يشاء وذو عفو وتصفاح

(١) مصادر الشعر الجاهلى د/ ناصر الدين الأسد ، ص ٣٥٧ وما بعدها بتصرف .

ويمثل (مرجليوت) بيت الشاعرة (جليلة بنت مرة) على أن النساء كن يلجأن إلى الله إذا حزنهم أمر ، وذلك كالشكل مثلاً ، فتراها تقول :

إننى قاتلة مقتولة ولعل الله أن يرتاح لى

ويعتدل أيضاً بيت الشاعر (عبيد بن الأبرص) وهو :

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب

ثم يومئ إلى أنهم كانوا يخشون ما يغضب الله من الذنوب يقول امرؤ القيس :

فاليوم أشرب غير مستحقب إثمًا من الله ولا واغل

ويستدل بيت النابغة على أنه كان يعرف قصة نوح :

فألقت الأمانة لم تخنها كذلك كان نوح لا يخون^(١)

ثم نراه يتحدث عن الألفاظ الإسلامية فى شعر (عترة العبسى) فيقول (وواضح أن عترة العبسى) كان يعرف وحى القرآن ومصطلحات الإسلام ؛ لأنه استخدم تلك الألفاظ وهى (قبة الفصاد) والركود والسجود وحجر المقام والجحيم والمحشر ولذلك قال عنه : لا داعى للشك فى أنه كان مسلماً تقياً صالحاً ، وذلك فى قوله :

إذا بلغ الفظام لنا صبى تخر له أعادينا سجودا

وقوله :

عجوز من بنى حسام بن نوح كأن جبينها حجر المقام

وقوله :

كلما ذقت بارداً من لماها خلته فى فمى كنار الجحيم

وقوله :

ورجعت عنهم لم يكن قصدى سوى ذكر يدوم إلى أوان المحشر^(٢)

(١) مصادر الشعر الجاهلى ، ص ٦١ وما بعدها .

(٢) ذاته بتصرف .

ثانياً : والدليل الثانى من الأدلة الداخلية هو اللغة ومدار حديثه فى هذا الدليل على أمرين :

الأمر الأول : الاختلاف بين لهجات القبائل المتعددة .

الأمر الثانى : الاختلاف بين لغة القبائل الشمالية جملة واللغة الحميرية فى الجنوب .

ثالثاً : والدليل الثالث قائم فى موضوعات القصائد نفسها ، وحديثه فى هذه النقطة بلغة الغموض والإبهام ، ولعله يريد أن يقول : (إن اتفاق القصائد الجاهلية فى التطرق لموضوعات واحدة بعينها تكرر فى كل قصيدة أمر يدل على أنها نظمت بعد نزول القرآن لا قبله ، وفى كتاب (الأصنام) لابن الكلبي من الشعر الجاهلى ما ينقض زعمه نقضاً ، أما الشعر المصبوغ بصبغة إسلامية بحثه فنحن نسلم بأنه موضوع ، ووضعه ينحصر فيه لا يتعداه إلى غيره ، ولا ييطل ما رواه من أشعار جاهلية .

أما من حيث اللغة وأنها ذات وحدة ظاهرة ، وهى لغة القرآن الكريم نفسها التى أشاعها فى العرب ، ولو أن هذا الشعر صحيح لمثل لنا لهجات القبائل المتعددة فى الجاهلية كما مثل لنا الاختلافات بين لغة القبائل الشمالية العدنانية واللغة الحميرية فى الجنوب ، وللرد على ذلك نقول : (إن لغة القرآن الفصحى كانت سائدة فى الجاهلية ، وأن الشعراء منذ فاتحة هذا العصر كانوا ينظمون بها وأنها كانت لهجة قريش وسادت بأسباب دينية واقتصادية وسياسية ، فكان الشعراء ينظمون بها متخليين عن لهجتهم المحلية على نحو ما يصنع الشعراء العرب فى عصرنا الحاضر حيث إن البلاد العربية متباينة اللهجات ، فلكل بلد لهجته الخاصة به ، فلهجة الشام مختلفة عن لهجة مصر ، وربما تختلف لهجة الإقليم ذاته ، ولكنهم جميعاً ينظمون الشعر بلغة واحدة هى لغة القرآن الكريم)^(١) .

أما أن الشعر الجاهلى لا يمثل اللغة الحميرية فهذا أمر طبعى لأنها ليست لغته وقديماً قال (أبو عمرو بن العلاء) ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ولا عريبتهم بعريبتنا^(٢)

(١) العصر الجاهلى د/ شوقى ضيف ص ١٦٧ بتصرف .

(٢) طبقات ابن سلام ص ٨ ط المحمودية بالقاهرة .

وقد أخذت الفصحى تقتحم الأبواب على هذه اللغة الجاهلية نفسها بحيث نستطيع أن نقول : إن تعريب الجنوبيين بدأ منذ عهود مبكرة ، وآخر أدلة (مرجليوث) على مزاعمه هو : أن النفوس المكتشفة للمالك الجاهلية المتحضرة وبخاصة اليمنية لا تدل على وجود أى نشاط شعري فيها ، فكيف أتيج لبدو غير متحضرين أن ينظموا هذا الشعر بينما لم ينظمه من تحضروا من أهل هذه الممالك ، وقد دحض (برونيلش) هذا الدليل لأن نظم الشعر لا يرتبط بالحضارة ولا بالثقافة ، والظروف الاجتماعية ، وهناك فطريون أو بدائيون لهم شعر كثير مثل (الإسكيمو)^(١) .

والحق أن (مرجليوث) جانبه الصواب في دعواه ، ولذلك هب كثير من المستشرقين بالرد عليه من أمثال : (برونيلش) و (لايل) فنرى المستشرق (لايل) يرد على (مرجليوث) قائلاً : بأنه لو فرضنا التسليم بذلك فإن من وضعوا هذا الشعر كانوا يحاكون نماذج سابقة ، وتقاليد أدبية موروثه ، وهذا يدل على وجود أصل كانوا يحاكونه .

كما يرد عليه أيضاً في مقدمة ديوان (عبيد بن الأبرص) بأن تقاليد شعر الشعراء القرن الأول الهجري تلزم بوجود الشعر الجاهلي الذي يشترك معها في التقاليد نفسها ، وبأن الشعر الجاهلي الذي وصلنا ألفاظ غريبة لم تكن تستخدم في عصر هؤلاء الرواة الذين دونوه^(٢) ، ويؤكد أن رواية هذا الشعر استمرت حية نشطة من الجاهلية إلى أن دون نهائياً في العصر العباسي وقد يكون أصاب قصائده بعض التغيير ولكن من يرجع إلى الملاحظات مثلاً يجد لكل منها شخصيتها الواضحة التي تنفرد بها ، والتي ثبتت أنها لصاحبه .

ويضيف الدكتور (شوقي ضيف) إلى هذه الردود رداً آخر فيقول إن في الشعر الجاهلي صوراً من الأساليب والتراكيب الملتوية التي تخرج على الصورة النحوية

(١) راجع في ذلك تاريخ الأدب العربي لبلاشين ص ١٨٠ والعصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ، ص ١٦٧ .

(٢) مقدمة الفضليات ، وديوان عبيد بن الأبرص ، من الظواهر الفنية في الشعر الجاهلي للأستاذ الدكتور / سعد ظلام ص ١٣٠ وما بعدها .

الطبيعية مما يدل على قدمها ، وأنها ليست من صنع العباسيين وأن فيه أيضاً صورة لتهتك خلقى لا يمكن أن تقوم إلا فى نفس وثنى ، على نحو ما يلقانا فى معلقة (امرؤ القيس) وحديثه عن الموضع وبسطه لجوانب متعته بالمرأة^(١) .

وأما مقولته من أن الإسلام نجح فى توحيد العرب ، وكان يحث على نسيان تلك الحوادث والقصائد التى من هذا الضرب تثير النفوس وتهيج الدماء فنحن نرد عليه قائلين : إن أبا بكر رضى الله عنه دخل بيت رسول الله ﷺ ذات يوم فوجد جاريتين إحدهما تسمى (زينب) والأخرى تسمى (حماسة) تغنيان بفناء (بغاث) أو (بعاث) وهو يوم من أيام العرب فى الجاهلية سجله الشعراء ، فزجرهما أبو بكر رضى الله عنه قائلاً : أمزماره الشيطان فى بيت رسول الله ؟ فنهاه النبى ﷺ طالباً تركهما بقوله (دعهما يغثيان) وإنكار أبى بكر رضى الله عنه للمزمار وليس إنكاراً لإنشاد الشعر الذى يسجل هذه الواقعة .

والمستشرقون يختلفون إلى اليوم فى قبول هذا الشعر وكان ممن أدلى بدلوه فى هذه القضية (بلاشير) حيث أنه تحدث طويلاً مبيناً ومجسماً الشبهات ، وبينما يحاول الاعتدال أحياناً إذ به يهاجم هجوماً عنيفاً^(٢) ، ويتلخص هجومه وتشكيكه فيما يلى :

أولاً : نحن نجد فى النصوص المذكورة أن الشعراء أياً كان عصرهم أو قبائلهم يستعملون لغة موحدة منزهة بصورة عامة عن كل أثر لهجى خاضعة لقواعد تركيبية هى بصورة مجملة قواعد نحاة البصرة ، ولا شك فى أن القصائد الجاهلية جردت بتأثير الرواة الكبار عن كثير من الظواهر اللهجية ، كما أن التثبت الكتابى بدوره أتم توحيد اللغة وحتى الأسلوب^(٣) .

وللرد على (بلاشير) نقول : إن اللهجة القرشية كانت لها السيادة يومذاك ، كما اتجه الشعراء إلى نظم أشعارهم بها كما أن قريشاً كان لها نفوذ كبير ، بسبب مركزها

(١) العصر الجاهلى د/ شوقى ضيف ص ١٦٨ .

(٢) تاريخ الأدب العربى للرافعى ١ / ١٨٣ وما بعدها .

(٣) ذاته ، ص ١٨٨ .

الروحي والمادى حيث كانت تقوم على حراسة الكعبة ، وكانت قوافلها تجوب أنحاء الجزيرة ، وكانت القبائل جميعها تجتمع عليها فى الأعياد الدينية ، والأسواق التجارية والأدبية فهى محط الرحال ، وكعبة قصاد ، ومهوى الأفئدة ، وهى فى كل ذلك تعمل على صقل لهجتها ، وتهذيب حوشيتها باختيار ما عذب فى اللسان ، وخف على الأسماع من لهجات هذه القبائل جميعها ، وبذلك تهيأ للهجة قريش أن تسود اللهجات ، وتصبح اللغة الفصحى التى نزل القرآن الكريم بها^(١) يقول أبو نصر الفارابى كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعاً ، وأبينها إبانة عما فى النفس^(٢) .

ويروى (أحمد بن فارس) عن (إسماعيل بن عبد الله) قوله : « أجمع علماؤنا بكلام العرب ، والرواة لأشعارهم ، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أن قريشاً أفصح العرب السنة ، وأصفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمد ﷺ فجعل قريشاً قطان حرمه ، وجيران بيته الحرام وولاته ، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يقدون إلى مكة للحج ، ويتحاضرون إلى قريش فى أمورهم ، وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم ، وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلاثقهم التى طبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب ، ألا ترى أنك لا تجد فى كلامهم عننة تميم ، ولا عجرية قيس ، ولا كشكشة أسد ، ولا كسكسة ربيعة »^(٣) .

ويقول (ابن خلدون) كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدها عن بلاد العجم من جميع جهاتهم فصانها بعدها عن الأعاجم من الفساد والتأثر بأساليب العجم حتى إن سائر العرب على نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغتهم فى الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية^(٤) هذا بالإضافة إلى الأسباب السياسية ،

(١) من الظواهر الفنية فى الشعر الجاهلى د/ سعد ظلام ، ص ١٣٢ وما بعدها بتصرف .

(٢) المزهر للسيوطى ١ / ١١ .

(٣) الصحابى فى فقه اللغة لابن فارس ص ٢٣ ط المؤيد .

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٤٠٩ فصل ٣٢ من القسم السادس .

العجرفية : التقرع وطلب الغريب الوحشى من الكلام

حيث إن القبائل العربية كانت ترى تحت أعينها هجوم الدول المجاورة من الفرس والروم والحش على أطرافها ، كما كانت ترى هجوم الديانتين ، المسيحية واليهودية على دينها الوثني فتجمعت قلوبها حول مكة ، وهوت أفئدتها إليها . وبذلك تهيأ للهجة القرشية أن يعلو سلطانها في الجاهلية على اللهجات القبلية المختلفة ، وأن تصبح هي اللغة الأدبية التي يصوغون فيها أدعيتهم الدينية وأفكارهم وأحاسيسهم ، والدليل على ذلك (سوق عكاظ) فقد كانت سوقاً أدبية ، كما كانت سوقاً تجارية وكان الخطباء يرتجلون فيها خطبهم ، وينشد الشعراء قصائدهم ولم يرد ذلك عن سوق سواها ، ومما يدعم هذا الدليل ما قاله الرواة من أن العرب كانت تعرض أشعارها على قريش فما قبلوه منها كان مقبولاً ، وما ردوه منها كان مردوداً ، فقدم عليهم (علقمة بن عبدة التميمي) فأنشدهم قصيدته :

« هل علمت وما استودعت مكتوم »

فقالوا : هذا سمط الدهر ، ثم عاد إليهم العام المقبل فأنشدهم قصيدته :

« صحابك قلب في الحسان طروب »

فقالوا : (هاتان سمطا الدهر)^(١) .

إذاً لهجة قريش هي الفصحى التي عمت وسادت في الجاهلية وكانت سيادتها في كل القبائل العربية شمالاً وغرباً وشرقاً ، وفي اليمامة والبحرين ، وسقطت إلى الجنوب ، واقتحمت الأبواب على لغة (حمير) واليمن وبخاصة في أطرافها الشمالية حيث منازل الأزد وختعم ، وهمدان وبنو الحارث بن كعب في نجران .

وقد روى الرواة عن أبي حاتم السجستاني أنه قال : (قرأ على أعرابي بالحرم : الذين آمنوا وعملوا الصالحات طيبى لهم وحسن مأب) فقلت : طوبى فقال الأعرابي : طيبى فلما طال على قلت : طوطو قال : طى طى^(٢) فلم يستطع أن يشنى طبعه لأن لهجته القبلية في مثل (طوبى) مما وزنه (فعلى) تنطقه (طيبى) على وزن (فعلى) بكسر الفاء

(١) الأغاني ١ / ١١٣ طبع السارس .

(٢) الخصائص لابن جنى تحقيق محمد على النجار ط دار الكتب المصرية ١٠ / ٧٥ ، ٧٦ .

فتقلب الواو ياء ، والضممة فى أول الكلمة كسرة ولم يفد فى الأعرابى لفت (أبى حاتم) له ولا تمرينه على نطق (طوبى) ولمثل ذلك تعددت قراءات القرآن الكريم تخفيفاً للمشقة عليهم فى تلاوته وفعلاً قرأوه بلهجته المرخص بها ، وكان ذلك سبب اختلاف قراءاته التى دونها العلماء^(١) .

ثانياً : يقول المستشرق (بلاشير) كل شىء يدعونا إلى الاعتقاد بأن كبار الرواة ومعهم علماء العراق قد أجروا فى الشعر القديم اصطلاحات ذات صيغة جمالية^(٢) ثم يقول (والمدهش هو تعدد الروايات واتساعها داخل كل بيت ، ولا ريب فى أنها ناشئة عن ضعف الذاكرة فى أثناء الرواية الشفوية ، وأن عدداً قليلاً منها ناشئ عن عدم اكتمال طريقة الكتابة أو عن استبدالات فى المترادفات ، وما من شىء يحيز لنا التأكيد بأن هذه الفروق الجزئية ليست قديمة ، ولا تصعد إلى ظهور الأثر نفسه^(٣) .

ثالثاً : ثم يستطرد المستشرق (بلاشير) قائلاً (إن دراسة النصوص الشعرية الصحيحة تقودنا إلى وضع مبدأ يقضى بعدم امتلاكنا أى أثر شفوى فى شكله الأصيل ، ونحن نعلم لكى تتم المأساة أن المقلدات قد امتزجت بالأصول القديمة التى يختلف تحريفها قلة أو كثرة دون أن نتمكن فى كثير من الأحيان من كشف هذه الانتحالات)^(٤) .

وتلك مزاعم مفتراة ، ومبالغ فى افترائها ، فلو صح ما ادعاه (بلاشير) لكان اصطلاحهم على أساس مقاييس جمالية عرفوها للشعر الجاهلى تنهض على الجزالة والرصانة ، وهذا يقوده إلى الاعتراف بوجود نماذج جاهلية صحيحة يقيسون عليها اصلاحهم ، كما يدفع ذلك الزعم أيضاً أن كثيراً من القصائد الجاهلية أثبتتها الرواة على حالها دون إصلاح أو تعديل مع أنها مضطربة الأوزان ، مختلفة العروض ، مثل قصيدة عبيد بن الأبرص :

أقفر من أهله ملحوب فالقطبيات فالذنوب

(١) العصر الجاهلى د/ شوقى ضيف ، ص ١٣٥ ط دار المعارف .

(٢) تاريخ الأدب العربى ، مرجع سابق ١ / ١٨٩ .

(٣) ذاته .

(٤) ذاته ، ص ٣٥٤ .

فبعضها من مخلع (البسيط) والآخر مضطرب لا يجرى على وزن معروف ومثل قصيدة للشاعر امرئ القيس :

عينك دمعها سجال كأن شأنيهما أو شال

فالشرط الأول من المخلع ، والثاني مضطرب ويقول الدكتور (شوقي ضيف) وهو أى (بلاشير) يزعم أن الرواة ونحاة البصرة عدلوا فى هذه الأصول بما يتماشى مع القواعد النحوية البصرية من جهة والقواعد الجمالية الأسلوبية من جهة ثانية ، متخذاً دليلاً على ذلك ، خلو القصائد الجاهلية من ظواهر اللهجات القبلية وقدمنا أن هذه الظواهر كانت فعلاً تكاد تكون منعدمة فى الجاهلية نفسها لأن الشعراء فى القبائل المختلفة اصطالحوا على أن ينظموا شعرهم بلهجة قريش واتخذوها لغة لشعرهم ، ومن أجل ذلك لم يسقط من لهجتهم فى أشعارهم إلا أشياء قليلة جداً ، سجلها هؤلاء النحاة البصريون ، وإلا ففيم هذه الشواذ النحوية التى تمتلىء بها كتبهم ، بل كان يرويه معهم رواة الكوفة ونحاتها ، وكانوا مولعين بإثبات الشواذ واعتبارها أصولاً يقاس عليها ، أما أن هؤلاء الرواة جميعاً أدخلوا فى الشعر الجاهلى إصلاحات ذات صبغة جمالية تقوم على متانة اللفظ وجزائته ، فهى دعوى تستلزم ضرباً من الدور ، إذ كانوا يرجعون فى هذه الإصلاحات إلى المقاييس الجمالية المبثوثة فى هذا الشعر الجاهلى . والتى تقوم على الرصانة والجزالة ثم يصلحونه على أساسها ، والحق أن ثقافتهم نقلوا إلينا هذا الشعر بكل صفاته الجمالية ، وما دخله من عيوب تركيبية أو شواذ نحوية ، أو لغوية ، وأما التغير فقد كان باستبدال كلمة بأخرى ترادفها ، وقد يخالف فى ترتيب أبيات القصيدة فيقدم فيها ويؤخر ، بيد أن ذلك لا يخل بصحة ما حمله ورواه العلماء الثقات الذين نصوا على المتحل والمصنوع ، على نحو ما يصور لنا ذلك (ابن سلام الجهمى) فى كتابه (طبقات فحول الشعراء)^(١) .

ومما يؤكد ذلك أن الوفود اليمنية التى وفدت على رسول الله ﷺ لم يحدثنا رواة الأخبار والسيرة النبوية أنها كانت تجد صعوبة فى التفاهم معه ، وقد أرسل إليهم

(١) العصر الجاهلى ، ص ١٦٩ ، ١٧٠ .

الصحابى الجليل (معاذ بن جبل) رضى الله عنه ، فلو أنهم كانوا لا يعرفون العربية الفصحى لكان إرسال الدعاة إليهم ضرباً من العبث ، فهناك حركة تعريب واسعة حدثت فى الجنوب قبل الإسلام ، أما فى الشمال فقد كانت الفصحى معروفة فى كل مكان ، وكان الشعراء يتخذونها لغة لشعرهم ، والدليل على ذلك سرعة استجابتهم للقرآن الكريم ودعوته فإنهم كانوا يفهمونه بمجرد سماعه ، فإذا عرفنا أنه نزل بلغة قريش تحتم أن تكون هى اللغة الأدبية التى كانت سائدة .

أما ما يردده اللغويون من أن القرآن الكريم نزل على سبع لغات منها خمس بلغة (العجزن من هوازن) وهم الذين يقال لهم (عليا هوازن) مثل (سعد بن بكر بن معاوية) و (ثقيف) فذلك تفسير منهم للحديث النبوى وهو (أنزل القرآن على سبعة أحرف فقرأوا ما تيسر منه) ، فقد نسروا الحروف باللغة أو اللهجة ، ونظروا فوجدوا اللهجات العربية ولغاتها كثيرة فاختاروا منها سبعة وهى أفصحها وهى التى كان يرحل إليها اللغويون لجمع مادتهم اللغوية الصحيحة ، والحديث لا يراى به تخصيص ، وإنما يراى به الترخيص لقبائل العرب أن تقرأ باللهجات المختلفة متى جاءت بها الرواية الصحيحة من مد ، وإمالة ، وتحريك للحروف ، وتسكين وتشديد ، تسهلاً عليهم وتيسيراً حتى لا يجدوا مشقة وثقلاً فى نطق بعض ألفاظه^(١) ونحن إلى هذا الرأى نميل .

وأما قوله : (إن القصائد المقلدة اختلطت بالقصائد الأصلية فى الشعر الجاهلى بحيث لا يمكن التمييز بين المقلد والأصل) ، فللرد عليه نقول : إنه زعم مبالغ فيه حيث إن الرواة الأثبات الثقات ميزوا لنا الأصول الصحيحة وأجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على توثيقها بحيث لا يرقى إليها الشك على الرغم من ذلك كله فإن الاستشراق وأهله دأب على الكيد للإسلام ولغة القرآن الكريم وبخاصة (اليهود) منهم ، فقد كانت الحرب مستمرة مشبوبة الأوار بيننا وبينهم ، أو بمعنى أدق ، بينهم وبين الإسلام وأهله ولغته ، عن طريق الغزو الفكرى فى عصرنا الحاضر وكذلك يعمل المستشرق اليهودى (صموئيل مرجليوث) ، الذى نشر فى سنة ١٩٢٥م رأيه عن الشعر الجاهلى والتشكيك فى مصادره ونسبتها للجاهلية وخرج برأى يشكك فى إعجاز

(١) العصر الجاهلى ، ص ١٤٣ ، ١٤٥ .

القرآن الكريم ، ثم قلد مرجليوث كتاب عرب على رأسهم الدكتور (طه حسين) الذى أخذ آراء المستشرق اليهودى وضمنها كتابه (فى الشعر الجاهلى)^(١) .

وقد تأثر الدكتور (طه حسين) بآراء المستشرقين وبخاصة (صموئيل مرجليوث) وطفق يردد رأيه مشككاً فى الشعر الجاهلى وصحته ، حينما انبرى لهذه القضية فى كتابه (الشعر الجاهلى) والذى أثار ضجة عنيفة فى الأوساط الدينية والأدبية حيث تصدى للرد عليه كثرة كاثرة من العلماء والأدباء ، فلم يلبث أن حذف منه ما حذف ثم أعاد نشره تحت عنوان (فى الأدب الجاهلى) وقد انتهى الدكتور (طه حسين) من بحثه إلى هذا الرأى ، يقول : (إن الكثرة المطلقة مما نسميه أدباً جاهلياً ليست من الجاهلية فى شىء ، وإنما هى متحلة بعد ظهور الإسلام ، فهى إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين ، وأكاد أشك فى أن ما بقى من الأدب الجاهلى الصحيح قليل جداً لا يمثل شيئاً ، ولا يدل على شىء ولا ينبغى الاعتماد عليه فى استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلى^(٢)) وواضح من مقولته أنه يعترف بأن هناك شعراً جاهلياً صحيحاً ، وإن كانت فى رأيه قليلة ولا تعطى الصورة الأدبية الوثيقة لهذا الشعر ، ثم مضى يسرد الأسباب التى تدعو إلى الشك فى الشعر الجاهلى ، وها هو ذا مجمل آرائه والرد عليها .

أولاً: إن الشعر الجاهلى لا يصور حياة الجاهليين الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية ، كما أنه لا يصور لغتهم وما كان فيها من اختلاف اللهجات ، وتباينها بلهجاتها من اللغة الحميرية ، أما من حيث حياتهم فنقول إنه عرضها على القرآن الكريم فوجده يمثلها من جميع جوانبها المذكورة تمثيلاً قوياً ، فهو يجادل اليهود والنصارى ، والصابئة والمجوس ، ويهاجمهم كما يهاجم الوثنية والوثنيين ، ويطالعا فى تضاعيف ذلك على جملة معتقداتهم بينما نجد الشعر الجاهلى بريئاً من هذا كله وليس فيه صدى للشعور الدينى القوى والعاطفة المتسلطة على النفس .

(١) الإسلام والمستشرقون د/ محمد الدسوقي ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ص ٥١ سنة ١٩٦٢ وجذور البلاء - اللواء عبد الله التل القسم الأول ص ١٩٩ . نشر المكتب الإسلامى الطبعة الثانية دمشق ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .

(٢) فى الأدب الجاهلى د/ طه حسين ط أولى ، ص ٦٤ .

والحق أن قياس الشعر الجاهلى فى هذه الجوانب على القرآن الكريم مردود ، حيث إن القرآن كتاب دينى يريد أن يجمع العرب على الإسلام ، فأمر طبيعى أن يعرض لديانتهم ثم يناقشها مبيناً ما فيها من زيف وضلال ، بخلاف الشعر فإن شاعراً لم يدع لدين جديد ، بيد أن (كتاب الأصنام لابن الكلبي) حافل بالشعر الوثنى ، يصور حياتهم الوثنية تصويراً بارعاً دقيقاً ويرى (جورجى زيدان) أن المنظومات الدينية قد ضاعت لاشتغال العرب عنها بالحماسة والفخر بسبب الحروب ، فلما جاء الإسلام أغضى الرواة عنها لأنها وثنية^(١) .

ونحن نرى ما ارتأه (جورجى زيدان) حيث إنه لا يعقل أن يغفل الشعراء هذا الجانب المهم من حياتهم ، وبخاصة أنه يتعلق بالعقيدة والشعر يومذاك هو المرأة الصادقة التى تعكس جميع حياتهم ، بل ويصور ويصف كل ما تقع عليه نواظرهم فى بيئتهم الجاهلية ، فلما بزغت شمس الإسلام أغفل الرواة هذه الأشعار ، وتلك المنظومات ، وشغلوا عنها بالإسلام وتعاليمه التى تخاطب العقل ، وتتواءم وتتسق مع الفطر السليمة فانمحت معالمها ، وانطمست ودرست آثارها ، ولم يصل إلينا شئ منها . ويذكر المستشرق إدوار براونلش (أن قلة الشعر الدينى راجعة إلى أن علماء المسلمون يرفضون من الشعر ما خالف الإسلام)^(٢) وهذا رأى لا بأس به ، ونراه متفقاً فى مقولته هذه مع ما ذهبنا إليه من قضاء الإسلام على الوثنية وانصراف الرواة عن رواية هذا اللون من الشعر لأنه مخالف لعقيدة المسلمين كما أن فيه مخالفة لما جاء به الإسلام .

ثانياً : ثم ينتقل الدكتور (طه حسين) إلى الحياة العقلية للجاهليين فيلاحظ أنها غير واضحة فى الشعر المنسوب إليهم ، وكأنه يطلب إليهم حياة عقلية راقية أو معقدة ، فآية حياة عقلية لهؤلاء البدو يمكن أن يصورها هذا الشعر ؟ لقد كانوا بدواً لم يتحولوا بعد إلى طور فكرى منظم ، ومعنى ذلك أن حياتهم العقلية الفطرية ماثلة تماماً فى شعرهم .

ثالثاً : الحياة السياسية : يرى الدكتور (طه حسين) أن حياتهم السياسية لا تتضح فى أشعارهم ، مع أنهم كانوا على اتصال بمن حولهم من الأمم الأخرى مثل الفرس والروم ،

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ١ / ٦١ ط دار الهلال سنة ١٩٥٧ .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان .

كما يوضح لنا ذلك القرآن الكريم فى سورة الروم إذ يعرض علينا العرب شيعيتين ، إحداهما تنتصر للروم ، والأخرى تنتصر للفرس ، وفى الحقيقة أن هذا لا يصدق على العرب جميعاً ، إنما يصدق على قريش وقوافلها التجارية التى كانت تنزل فى بلاد الدولتين ، ومع ذلك فقد كان شعراء (نجد) و (الحجاز) يتصلون بالغساسنة من أتباع الروم ، والمناذرة من أتباع الفرس ويهجونهم ويمدحونهم ، ولما نشبت الحرب بين قبيلة (بكر) ، و (الفرس) قبل الإسلام هددهم شعراء هذه القبيلة وتوعدهم طويلاً على نحو ما هو معروف عن الأعشى ، حيث يقول :

وجند كسرى غداة الحنو صبحهم	منا كتائب تزجى الموت فانصرفوا
جحاجح وبنو ملك غطارفة	من الأعاجم فى آذانها النطف
إذا مالوا إلى الشباب أيديهم	ملنا ببيض فظل الهام يختطف
وخيل بكر فما تنفك تطحنهم	حتى تولوا وكاد اليوم يتصف
لو أن كل معد كان شاركننا	فى يوم ذى قار ما أخطاهم الشرف ^(١)

وذلك من قصيدة مطلعها :

كانت وصاة وحاجات لنا كفف
لو أن صبحك إذا ناديتهم وقفوا
وها هو ذا الشاعر (عمرو بن كلثوم) يقول :

* وكأس قد شربت بيبعلبك *^(٢)

وامرؤ القيس يصف رحلته إلى القسطنطينية ، يقول :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه	وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما	نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا ^(٣)

(١) الديوان ص ٣١ شرح وتعليق د/ محمد حسين ، نشر مكتبة الآداب بالجواميز دون تاريخ .
الحنو : منعرج الوادى . ويوم الحنو هو يوم ذى قار ، صبحهم : غزاهم صباحاً ، زجى الشيء : كنصر وأزجاء ساقه ودفعه ، الجحجج والجحجاج السيد المسارع إلى المكارم وكذلك الغطريف .
النشاب : السهام ، معد : هو معد بن عدنان جد عرب الشمال من قبائل ربيعة ومضر جميعاً .
(٢) الديوان .
(٣) الديوان ص ٦٥ ، ٦٦ ت محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة .

ويقول الأعشى :

قد طفت ما بين بانقيا إلى عدن وطال في العجم ترحالي وتسيارى^(١)
وهو من قصيدة يمدح بها (شريح بن حصن بن عمران بن السمؤال بن عادي)
ومطلعها :

شريح لا تتركنى بعد ما عقلت حبالك اليوم بعد القد أظفارى^(*)
ويقول أيضاً :

أتيت النجاشى فى داره وأرض النبيط وأرض العجم^(٢)
وشعر النابغة أيضاً يمثل اتصاله بملوك الحيرة ، كما أن شعر (عدى بن زيد) يمثل هذه
الصلة بين العرب والفرس ، فاتصال (عدى) بديوان (كسرى) معروف^(٣) .

رابعاً : أما الناحية الاقتصادية فإنه يرى أن القرآن يتحدث عن الأغنياء المستأثرون
بالثروة ، والفقراء المعدمون ، كما يتحدث عن البخلاء ، ويذم البخل وليس في شعرهم
صدى للنظام الطبقي ولا تصويراً للبخل ، وإنما فيه أن العرب كلهم أجواد كرام .

خامساً : إن الشعر الجاهلى لا يصور اللغتين الشائعتين فى الجزيرة لغة الحميريين
الجنوبية ، ولغة العدنانيين الشمالية ، بل هو يضيف إلى الجنوبيين أشعاراً بلغة
الشماليين ، وحقاً أن ما يضاف إلى من كانوا فى أقصى الجنوب وداخل اليمن منتحل ،
أما من كانوا منهم يجاورون الشماليين فقد تعربوا فى الجاهلية مثل (مذحج) وبلحارث
ابن كعب حتى إنه شك فى شعر (امرئ القيس) لأنه يبنى وشعره قرشى اللغة^(٤) واتخذ

(١) الديوان ، ص ١٧٩ المقطوعة ٥٥ .

(*) القد : السير من الجلد غير المدبوغ كان يربط به الأسير وأظفارى : فاعل عقلت .

(٢) الديوان ص ٤١ مقطوعة رقم ٤ البيت رقم ٥٧ شرح وتعليق د/ محمد حسين . نشر مكتبة
الآداب بالجماميز - المطبعة النموذجية .

(٣) من الظواهر الفنية فى الشعر الجاهلى د/ سعد ظلام ، ص ١٣٧ والعصر الجاهلى د/ شوقي ضيف
ص ١٧١ ، ١٧٢ .

(٤) ذاته والعصر الجاهلى ص ١٧٢ ، فى الأدب الجاهلى د/ طه حسين .

الدكتور « طه حسين » من كل ذلك مطعناً فى صحة الشعر الجاهلى . والسبئيون من القحطانيين نزحوا من الجنوب إلى الشمال قبل الإسلام بعد سيل العرم ومنهم اللخميون ملوك الحيرة والغساسنة ملوك الشام وغيرهم . أما حمير فهى التى كانت بأرضها فى (ظفار) و (صنعاء) وما جاورها ، وهى التى قال فيها (أبو عمرو بن العلاء) (ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا)^(١) .

أما اللهجات الشمالية المختلفة التى لاحظ (طه حسين) أن الشعر الجاهلى لا يمثلها حيث كان ينبغى أن تظهر فيه وجوه اختلافها ، فقد أومأنا آنفاً إلى أن اللهجة القرشية قد سادت كل هذه اللهجات لمركزها الدينى والسياسى والاقتصادى يومذاك ، وأن الشعراء اتجهوا للنظم وتخيروها فى لغتهم الأدبية .

وذلك قياس لا يستقيم حيث إن شعر الصعاليك طافح بما يصور النضال المضنى بين الأغنياء والفقراء ، كما أنه يثور على ذلك النظام الاقتصادى الجائر^(٢) ، بقيادة زعيمهم الشاعر (عروة بن الورد) والذى يقول :

أقسم جسمى فى جسوم كثيرة وأحسو حساء الماء والماء بارد

فالشعر الجاهلى مثل الحياة الجاهلية أصدق ما يكون التمثيل ، ورسم ألوان معاشيهم ، وصور عاداتهم وتقاليدها ، وتحدث عن ديانتهم وأديانهم ، ووصف بيئتهم أدق وصف بكل ما فيها من سماء ونجوم وكواكب ورعد وبرق ، ومطر ، ونبات ، وإبل وخيل وبقر وحشى وحيوانات وحشرات ، وأطلال ورياح ، وسفن وبحار ، ورياض ، وأطيار ، إلى غير ذلك من الأوصاف التى يعج بها شعرهم حيث إنهم وصفوا كل ما وقعت عليه نواظرهم من طبيعة ساكنة أو متحركة ، كما سجل الشعر أيامهم ووقائعهم ، وتاريخهم وأخبارهم . يقول المستشرق (نيكلسون) : (إن الأدب الجاهلى المنظوم منه والمنثور يمكننا من تصوير حياة تلك الأيام الجاهلية تصويراً أقرب ما يكون إلى الدقة)^(٣)

(١) طبقات ابن سلام ، ص ٨ .

(٢) الشعراء الصعاليك د/ يوسف خليف ، ص ١٣٣ ط دار المعارف ، القاهرة .

(٣) من الظواهر الفنية ، ص ١٣٨ .

ويقول (شوربكة) الألمانى فى كتابه عن الشاعر (عترة العبسى) يمكن تعريف الشعر الجاهلى بأنه وصف مزين بالشواهد لحياة الجاهلية وأفكارها^(١) ويقول (نولدكه) الهولندى : (إن عادات العرب وأحوالهم معلومة لنا بالدقة نقلاً عن أشعارهم)^(٢) .

سادساً : ثم إننا نرى (طه حسين) يرد أسباب النحل والوضع فى الشعر الجاهلى إلى السياسة والدين والقصص والشعوبية والرواة أما السياسة فأراد بها العصبية القبلية حيث رآها قد لعبت دوراً واضحاً فى شعر قريش والأنصار إذ أضافت قريش إلى نفسها أشعاراً كثيرة ولم يغب ذلك عن (ابن سلام) حيث نبه إليه قائلاً : (كما أن شكهم فى قصيدة أبى طالب دليل على أنهم نظروا فى شعر قريش فقبلوا منه ورفضوا)^(٣) ثم انتقل إلى العامل الدينى مبيناً دوره فى النحل متشككاً فى الأشعار التى يقال إنها نظمت فى الجاهلية إرهاباً لبعثة الرسول عليه السلام ، وذلك مما رواه (محمد بن إسحاق) صاحب السيرة ، وقد نبه على ذلك أيضاً (ابن سلام) بل ورفضه حيث قال : (وكان ممن هجن الشعر وأفسده وحمل منه كل غثاء ، محمد بن إسحاق مولى آل مخزومة ابن المطلب بن عبد مناف) وكان من علماء الناس بالسير فقبل الناس عنه الأشعار ، وكان يعتذر منها ويقول (لا علم لى بالشعر إنما أوتى به فأحمله ، ولم يكن ذلك له عذراً ، فكتب فى السير من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط ، وأشعار النساء فضلاً عن أشعار الرجال ثم جاوز ذلك إلى عاد ، وثمود ، أفلا يرجع إلى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر ، ومن أداه منذ ألوف من السنين ، والله يقول : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادَا الْأُولَى وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى ﴾ وقال فى عاد : ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ وقال : ﴿ وَعَادَا وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾^(٤) ، ثم يشك أيضاً فيما نسب إلى شعراء اليهود والنصارى من أشعار ، وما أضيف إلى (عدى بن زيد العبادى) ولم يكن القدماء فى غفلة عن ذلك .

(١) من الظواهر الفنية ، ص ١٣٨ .

(٢) ذاته .

(٣) طبقات ابن سلام الجمحى ، ص ٢٠٤ .

(٤) ذاته ، ص ٦ ، ٧ ، المطبعة المحمودية التجارية الكبرى محمود على صبح الأزهر .

ثم يتحدث عن القصص والقصص وأثرهم فى وضع الشعر ونبه عليه (ابن سلام) فى طبقاته^(١) ثم يعرض للشعوبية وما يمكن أن تكون قد نحلت الجاهلية من أشعار لتثبت على لسانهم مثالبهم التى تدعيها ، كما تثبت ثناءهم على الأعاجم ، وشك أيضاً فى هذا الشعر الذى يضيفه (الجاحظ) إلى الجاهليين فى مصنفه (الحيوان) ليدل على اتساع معرفتهم فى هذا العلم أى (علم الحيوان) والحق أن هذا لم يكن من أهداف الجاحظ فهو نفسه ينفى عن الجاهليين العلم الدقيق بالحيوان ، حيث يقول : (إن معارفهم فيه معارف أولية ، وأنه إنما ورد فى أشعارهم لأنه كان مثبتاً تحت أعينهم وأبصارهم فى ديارهم)^(٢) .

ثم يتحدث عن الرواة الوضاعين من أمثال (حماد) و (خلف) وقد رأينا كيف كان العلماء القدامى لهم بالمرصاد ، والحق أن الشعر الجاهلى فيه موضوع كثير ، بيد أن ذلك لم يكن غائباً عن العلماء القدامى حيث إنهم تنبهوا إلى ذلك ونبهوا عليه ، وعرضوه على منضدة النقد ومتناولين الرواة من جهة وصيغته وألفاظه من جهة أخرى ، وأحاطوه بسياج من التحرى والدقة والتثبت ، فكان من الواجب أن يترى المستشرقون وأتباعهم من أمثال (صموئيل مرجليوث) والدكتور (طه حسين) فى البت فى هذه القضية والشك والتشكيك فى هذا التراث الخالد إلى الحد الذى أفضى بهم إلى رفضه وعدم قبوله البتة ، ولكننا نشك ونرفض فيما شك فيه القدماء ورفضوه ، ونقبل ما قبلوه ووثقوه وبخاصة ما ورد عن طريق العلماء الثقات والرواة الأثبات من أمثال (أبى عمرو ابن العلاء) و (المفضل الضبى) و (الأصمعى) و (أبى زيد القرشى) فذلك الشعر وتلك المرويات قمية بالقبول ، وحرية بالثقة ، وتحقيق أن نقبله ولا نرفضه ما دام هناك إجماع على صحته والوثوق به .

ونحن لا نمانع من أن يوضع ما يتطرق إليه الريب على منضدة البحث والتحليل والمناقشة ، فنقبل ما هو مقطوع بصحته كما أو ماناً إلى ذلك انقاً ، ونرفض ما نرتاب فيه على أسس علمية ، ودراسات وبحوث متأنية وبعيدة عن الحدس والظن والتخمين

(١) طبقات ابن سلام الجمعى ، ١١٧ .

(٢) الحيوان للجاحظ ٦ / ٢٩ وما بعدها .

والأهواء ، محكمين فى ذلك عقولنا والمنهج العلمية الصحيحة ، فى طرق البحث نائين عن المشاعر الدافقة ، والعواطف الجياشة ، والأغراض الحاقدة ، والنزعات المنساقنة انسياقاً أعمى وراء المغرضين الذين يريدون النيل من تراثنا ولغتنا وإسلامنا .

فإن ذلك منهاج لا يؤدى غالباً إلا إلى نتائج علمية سليمة وصحيحة .

كأن يروى مثلاً شعر لشاعر لا يتصل ذلك الشعر بظروفه التاريخية ، أو تجرى فيه أسماء مواضع بمنأى عن موطن قبيلته ، أو يضاف إليه شعر إسلامى النزعة ، ونحو ذلك مما يجعلنا نشك فى هذا الشعر ، أو على الأقل لا نثق فى سمته ونسبته .

أهم مراجع القضية :

- ١ - طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى .
- ٢ - تاريخ آداب العرب للرافعى ص ٣٥٢ وما بعدها طبع دار الكتاب العربى ، لبنان ، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .
- ٣ - مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية د/ ناصر الدين الأسد ، ص ٣٢١ إلى ص ٤٢٨ ط دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٦م .
- ٤ - فى الأدب الجاهلى د/ طه حسين .
- ٥ - العصر الجاهلى . د/ شوقى ضيف ص ١٦٤ - ١٧٦ الطبعة العاشرة ، دار المعارف ، القاهرة .
- ٦ - من الظواهر الفنية فى الشعر الجاهلى د/ سعد ظلام ص ١٢٧ إلى ص ٢١٥ ط مؤسسة يوم المستشفيات بالقاهرة .
- ٧ - فى تاريخ الأدب الجاهلى د/ على الجندى ط دار المعارف بالقاهرة .